تلخيص محاضرة

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٦/٥/٩هـ

٢٠٢٤/١١/١١م

جـزءٌ مـن إيمـان الـعبد إدراكـه أن لـلعمر خـاتمـة وأن لـلحياة نـهايـة، وأن لـكل عـبد أرضٌ تضمّه، منها يـبتدأ وإليها ينتهي.

فهل أعددنا لذاك اليوم وتلك النهاية ؟

قال تعالى:"وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ" النجم:٤٢

المنتهـى الـذي لا نـعلم وقـته ولـكننا نـعلم مـآلـه، نجهـل يـوم قـبض الـروح ولـكننا نـعلم عـلم اليقين أن لـلحياة نـهايـة فأمرنا بالتخطيط والاستعداد لـها كما هـو التخـطيط لمـشاريـعنا الـدنـيويـة وأكثر فـكيف بمشروع العمر؟

قال يعقوب مخاطبًا أبناءه، قال تعالى: **"وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ"** البقرة:١٣٢

أوصاهم يعقوب -عليه السلام- أن يحيوا على الإسلام وأن يموتوا عليه؛ ولأن تحيا على الإسلام هو أمر يسهل على العبد إن عرف حلال الله وحرامه فجعل منه منهجًا للحياة، وأن يتخذ قراراته وهو واضعًا الموت نصب عينيه حاضرًا ومؤثرًا.

لكن كيف يوصيهم أن يموتوا على الإسلام؟ كيف به وهو يعلم علم اليقين أنهم لا يملكون النهايات وأنها ليست بيدهم؟ لكنها الحقيقة المختبئة خلف الوصية أن من عاش على شيء مات عليه وختم له به.

لماذا نتكلم عن الموت ؟

لأن حياتنا مزدحمة بكثرة الاستهلاك وسرعة الوتيرة، تجعل العبد لا يفكر في خطوة أبعد مما هو عليه، ولا يتخيل أن يزوره الموت في أي لحظة، لذلك أوصانا النبي ﷺ بكثرة ذكره حين قال: **"أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ"** المصدر: الترمذي وحسنه الألباني

تَذَكُر الموت يصلح القلب والحال، يجعل العبد مستعدًا له، يعيش حياته بقرارات آخروية صحيحة؛ لأنه يعلم الوجهة.

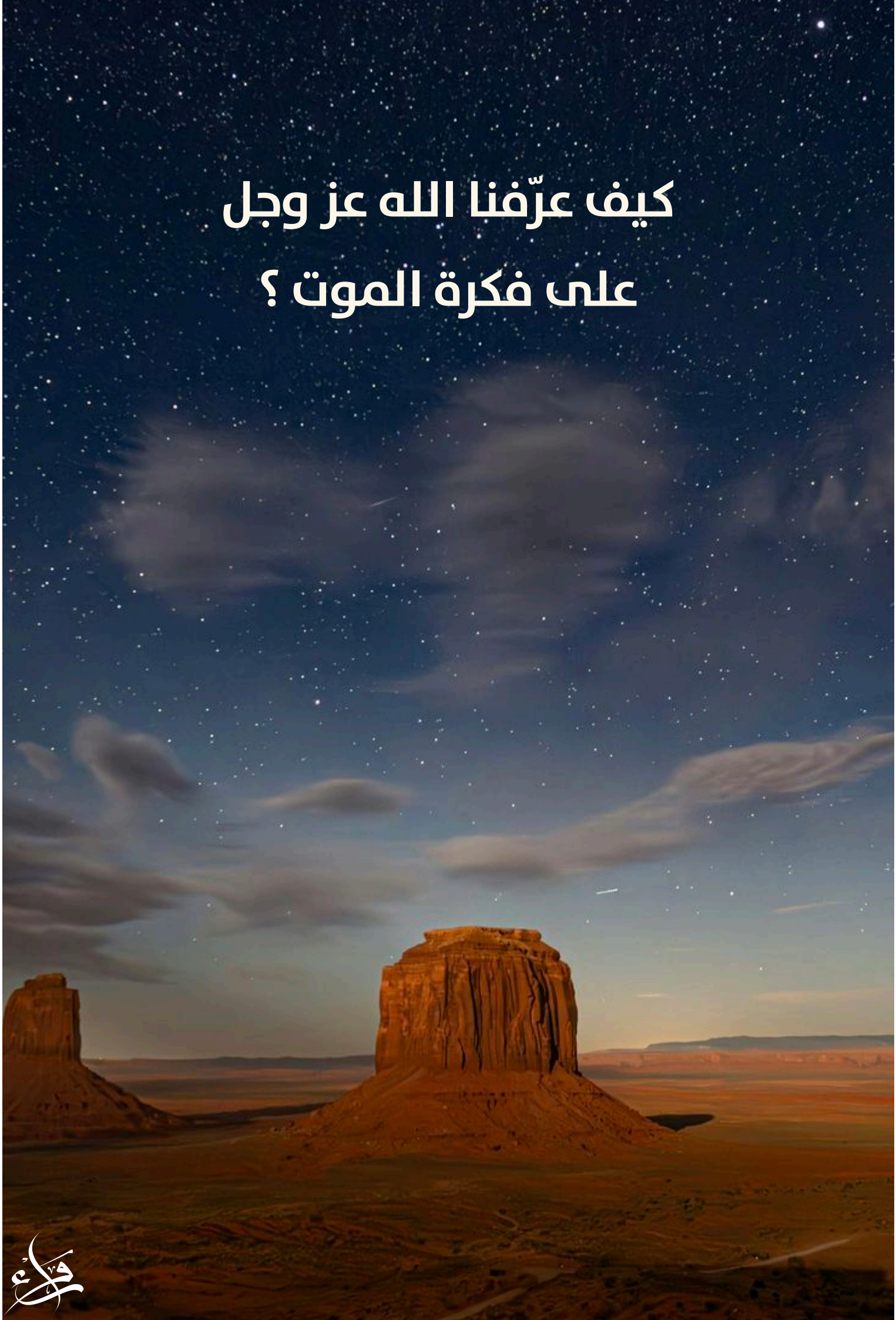
كيف عرّفنا الله عز وجل
على فكرة الموت ؟

يقول الله عز وجل: **"قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون"** الجمعة:٨

جميعنا نود أن نهرب من الموت، ونود أن نهرب من فكرة وجوده المزعجة ومفارقة الحياة ومن نحب. قال أحد الخلفاء لعالم من العلماء متسائلاً: ما بالنا نكره الموت ونحب الحياة؟ قال: لأنكم عمّرتم دنياكم وخرّبتم آخرتكم.

ومن عمر المكان بالأثاث والبيوت وطول العمر عز عليه فراقه، وكره أن ينتقل من العمار إلى الخراب! إلى قبر لم يعد له وإلى موت يجهل مآله وما سيلاقيه!

يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-:

"وليس للمؤمن راحة دون لقاء الله"

إذن الحياة كلها كد وكبد، فلا راحة قبل لقاء الله.

من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر عليه أن يستعد وينتبه؛ لقول الله عز وجل: **"أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ "**

فاطر:٣٧

بلغ العبد من العمر إلى أن جاءه النذير، وهو دخوله في عمر 40 سنة وقيل عمر 60 سنة، و قول آخر هي أول شيبة تراها في شعرك، وقيل النذير هو الموت يقول النبي ﷺ: **"مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ"** المصدر: الترمذي

ويقول النبي ﷺ: **"أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ، إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ"** المصدر: الترمذي وحسنه الألباني

هل نحن مستعدون للموت؟

يقول سفيان الثوري على لسان شيخ كبير قابله في مسجد الكوفة: أنا في المسجد منذ 30 سنة أنتظر الموت! لو نزل بي وأتاني، ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء، ولا لأحد عندي شيء.

فنحن لسنا مستعدون للموت لذا نخاف ونرهب، وليس على العبد ذاك بل عليه أن يحرص أن تكون الفكرة حاضرة في ذهنه، و أن لكل عبد كتاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا ليعمل ويتقي، و أن ما بعد الموت هو البعث ولقاء الله عزوجل ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

العمل المنفصل عنك بعد موتك

وهو ما تورثه لأهلك من مال، ستحاسب عليه من أين جئت به وعلى ماذا أنفقته؟قال يحيى بن معاذ في ذلك: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما تحصل للعبد في ماله، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

المرء في ظل صدقته

أُهدي لعائشة-رضي الله عنه-لحم فتصدقت به كله ولم تُبقي منه إلا الكتف لأن النبي ﷺ يُحب الكتف، فعَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ: **"مَا بَقِيَ مِنْهَا؟" قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ:"بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا"** المصدر: الترمذي وصححه الألباني

صدقتك في دنياك هي ما يبقى لك، وهو من يستقبلك يوم القيامة والمرء في ظل صدقته.

احذر الموت قبل أن تنتقل إلى دار تصير فيها تتمنى الموت فلا تستطيع! قال تعالى:**"وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ"** الزخرف:٧٧

في يوم القيامة أناسًا تتمنى الموت لتخلص من العذاب و الحياة فلا يكون لها ذلك، ولهذا الاستعداد للموت هنا حتى لا يكون التمني هناك.

كيف كانوا يستعدون
الصحابة والتابعين للموت؟

استعداد الصحابة والتابعين للموت:

- معاذ بن جبل -رضي الله عنه- في مرض موته الأخير، وفي آخر يوم له قال: هل أصبحنا؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم أني أعوذ بك من ليلة صبيحتها إلى النار ثم قال: مرحبا بالموت حبيب جاء على فاقة ثم قال: اللهم إني كنت أخافك وإني اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم لم أكن محب للدنيا وطول البقاء بها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لطول ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

- عمر بن عبدالعزيز -رضي الله عنه- في مرض موته الأخير قال: أجلسوني فأجلسوه، ثم قال يناجي ربه : أنا الذي أمرتني فقصرت، وأنا الذي نهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله ، ثم أحد النظر، أي: توفي.

هيبة الموت في عصر الصحابة والتابعين:

- يقول الأعمش: كنا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزّى فيها لكثرة الباكيين.

- ويقول إبراهيم النخعي: كانوا يشهدون الجنازة فيرُى ذلك فيهم أيامًا. أي: أن من يحضر الجنازة فيصلي عليها ويكفنها لايعود إلى أمور الدنيا سريعًا ويرى ذلك في ملامح وجهه وقسماته.

كيف نثبت في حضرة الموت؟

ليس من السهل أن يثبت الإنسان في اللحظات الأخيرة، ولا يمكنه أن يثبت لولا أن يثبته الله، قال تعالى:**"يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"** إبراهيم:٢٧

فالعبد المؤمن الثابت على دين الله في دنياه يجازيه الله بالثبات في الآخرة.

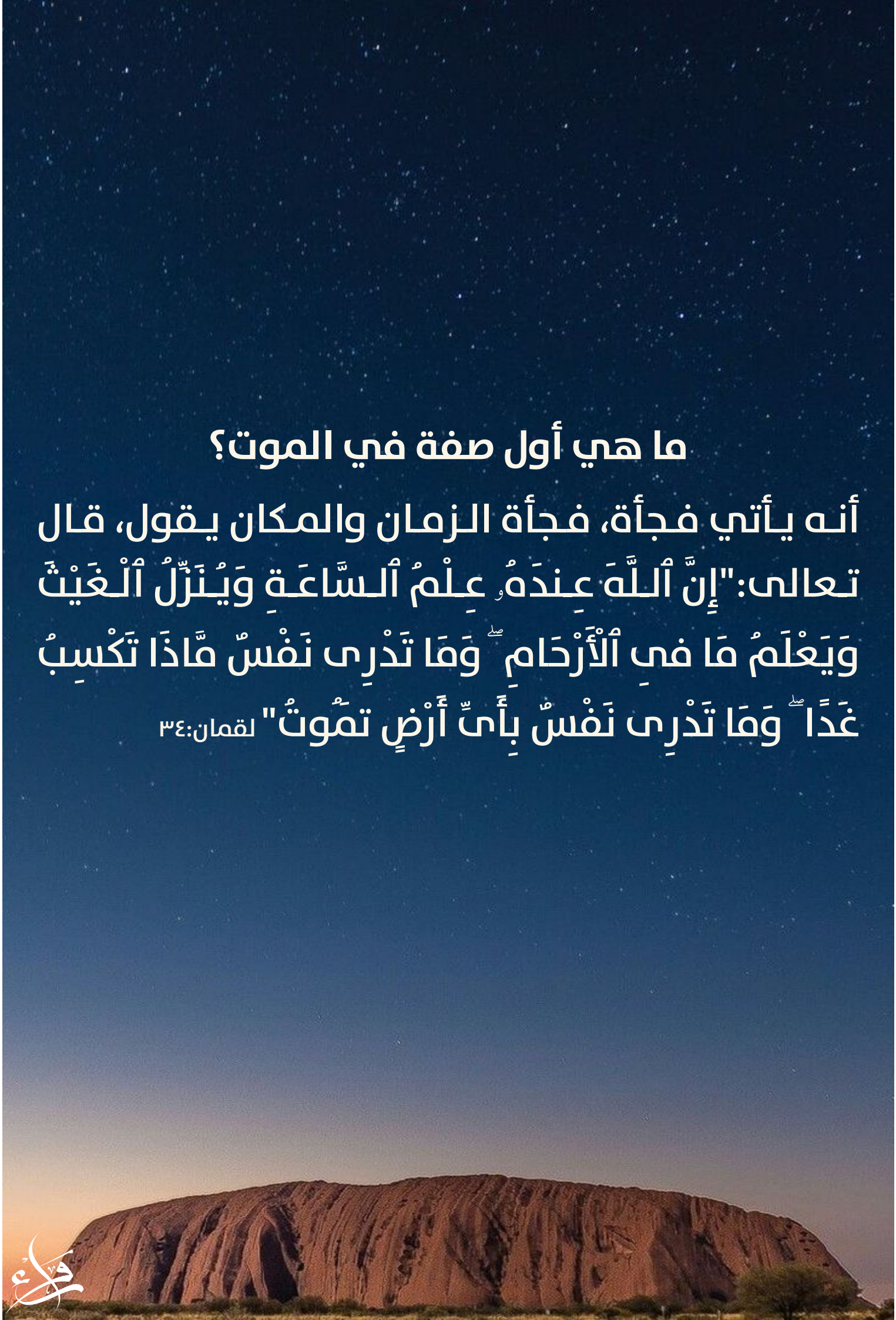

ما هي أول صفة في الموت؟

أنه يأتي فجأة، فجأة الزمان والمكان يقول، قال تعالى:"إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" لقمان:٣٤

كيف يجب أن نكّون منهج حياتنا؟

١. أن لا يتعلق العبد بدنياه: يكون على استعداد للرحيل في أي لحظة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، قَالَ: أَخَذَ النبي ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ:**"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ:"إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"** المصدر: صحيح البخاري

٢.اغتنام الخمس قبل الخمس: قال النبي ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: **"اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ. وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"**

المصدر:النسائي وصححه الألباني

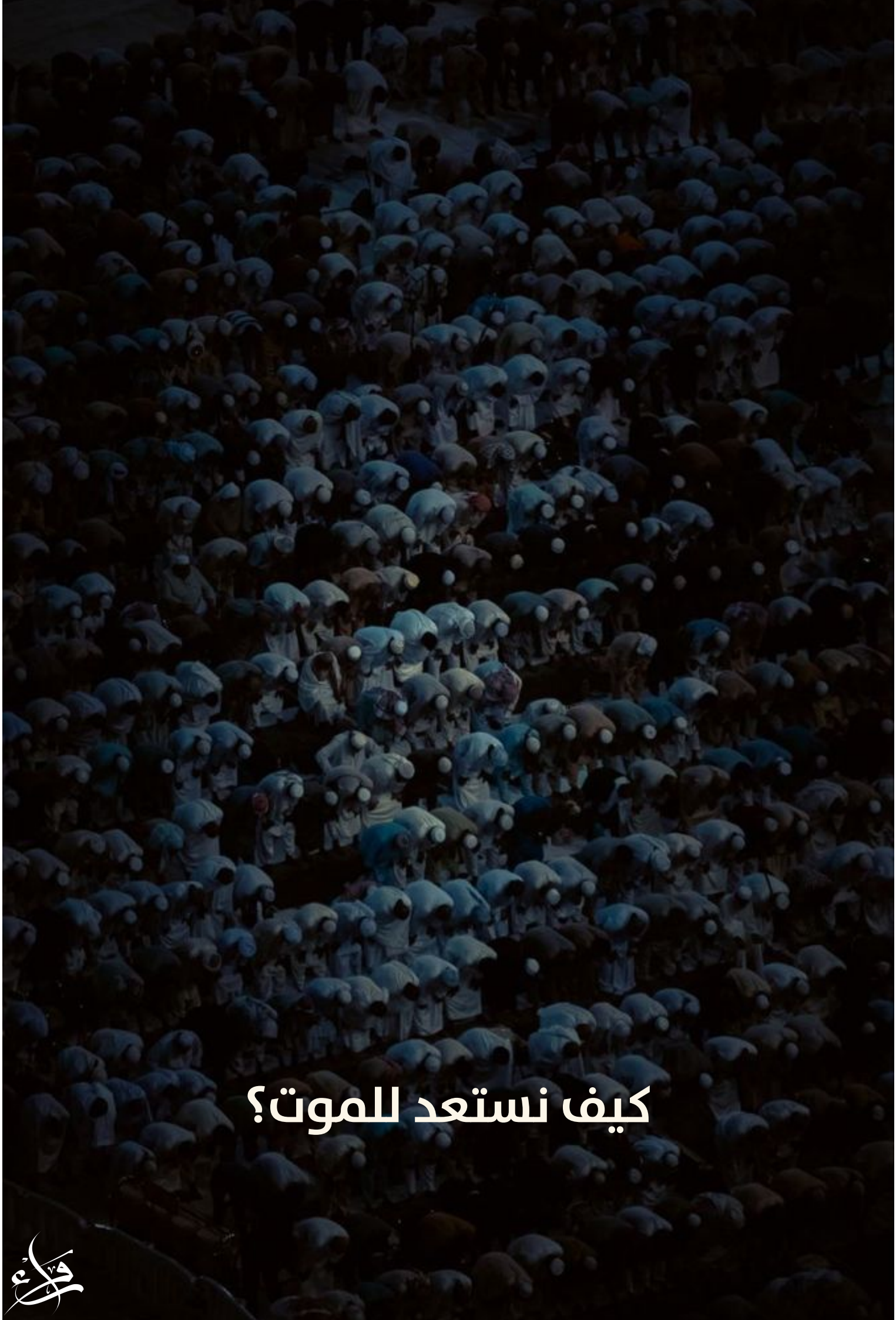
كيف نستعد للموت؟

١. أن يراجع العبد فرائضه، الحلال والحرام، الأوامر والنواهي، وأن لا يمت و فيه شيء من الحرام.

٢. أن يكثر من ذكر الموت -ليس الإكثار المفزع-، يقيس الذكر بحساب عقلي ومنطقي، أن هناك لحظة نهاية سيقف العمل بها وسيبدأ حينها الحساب، ومن فوائد ذكر الموت:

أ.رقة القلب :جاءت امرأة إلى عائشة-رضي الله عنها-: تشكو لها قساوة قلبها فقالت لها:أكثري من ذكر الموت، يرّق قلبك.

ب. استصغار الدنيا في عين العبد: قال الحسن البصري-رحمه الله- ما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا في عينيه وهانت عليه جميع ما فيها.

ج. إن من يكثر من ذكر الموت يكرم بثلاثة: يعّجل التوبة، يقنع قلبه، ينشط في العبادة.

٣. أن يتوب العبد توبة صادقة: ليس هناك أعظم من التوبة الصادقة قبل الموت، قال تعالى:**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** التحريم:٨

٤. أن يحسن الظن بالله: عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النبي ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ:**"لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ"** المصدر: صحيح مسلم

كيف يحسن العبد الظن بالله عز وجل في لحظاته الأخيرة؟

قال الإمام النووي عن هذا الحديث: **"لَا يمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ"** المصدر: صحيح مسلم

تحذيرًا من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة يقول أَنَسٍ -رضي الله عنه-، **أَنَّ النَّبِيَّ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ:"كَيْفَ تَجِدُكَ"، قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّيِّ أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ النبي ﷺ:"لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ"** المصدر: الترمذي وحسنّه الألباني

أي: إذا اجتمع الخوف والفزع ما غلب جانب على جانب إلا أعطاه الله عز وجل ما يرجو وآمنه مما يخاف.

٥. أن يستذكر مشاهد يوم القيامة: الصراط والحوض ودنو الشمس وعذاب البرزخ والشفاعة والجنة والنار، حين يستحضرها في ذهنه ستغير نمط حياته التي يعيش.

عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ: **"أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ"** قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، - وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا - أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ:**"إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي"** المصدر:صحيح البخاري

عـليك أيـها الـعبد أن لا تـنتظر أن يعتبر الـناس بمـوتـك، فـطالمـا عـزوجـل أمـد في عـمرك لهـذه اللحظة عليك أن تبادر بالتوبة وتستعد، ولتعلم أن لا راحة للمؤمن حتى لقاء ربه، و عليه أن يكثر من سؤال التوفيق للبشائر قبل الموت.

عن عائشة -رضي الله عنها- لما سمعت النبي ﷺ يقول: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ" قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: "لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ" المصدر: البخاري

عائشة -رضي الله عنها- وهي الذكية الأريبة قالت: "**إنا لنكْرَهُ المَوْتَ**"، فقال لها: "**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ**" أي: إذا سمع المؤمن ملك الموت، يقول يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، ورأى ملائكة الرحمة تبشره، فقد فاز بالجنة، ففي هذه اللحظة يحب لقاء الله ولا يريد أن يمكث في الدنيا.

فحسن الختام بحسن العمل و الاستعداد، وأرشدنا النبي ﷺ إلى هذا الدعاء:"**يا ولي الإسلام وأهله، ثبتني به حتى ألقاك**" المصدر: الطبراني وحسنه الألباني

وقال النبي ﷺ أيضًا في الحديث:"**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، عَسَلَهُ** "، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ:" **يَفْتَحُ اللهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**" المصدر: الألباني

يوفق الله العبد لعمل صالح قبل الموت أو ابتلاء أو أمر كتبه الله عليه، فلا يزال الله ينزل بعبده البلاء حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة.
وليتذكر العبد أن من طيّب الله حياته طاب مماته والعكس بالعكس، وأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه.

اللهم إنا نسألك الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار.

جزءٌ من إيمانك أنك تدرك أنه للحياة نهاية، و قصةُ كل إنسان ختامها أرضٌ تضمّه، فمنها ابتدأ وإليها يعود، فهل استعددت لمثل ذلك اليوم؟

حديثنا اليوم حديث النهايات، في قوله تعالى:**"وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ"** النجم:٤٢

فهل نحن بالفعل خططنا لهذه النهاية الحتمية؟

لا نعلم متى سيكون الموت لكن علينا أن نعلم كيف نستعد له!

السؤال الأهم كيف نستعد لهذا اليوم ؟

١.أن تراجع فرائضك

٢.أن تكثر من ذكر الموت

٣.تستعد له بتوبة صادقة

٤.حسن الظن بالله

٥.تكثر ذكر مشاهد يوم القيامة

للإطلاع على الدروس السابقة
تفضل بزيارة مدونة رَوَاء:
https://rawaa.org